

فلسفة الفكر الديني في الإسلام

د. عرفات كرم مصطفى
stoniati@yahoo.com

2009

بسم الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله... أما بعد.

فإن الفكر الديني في جميع الأديان وخاصة السماوية منها في حركة متطورة وديناميكية، وذلك لأنه - أي الفكر الديني - تفسير وتأويل لمقاصد ومعاني النصوص الدينية، أو بعبارة أخرى فهم إنساني لها عن طريق الاجتهاد، ومعلوم أن لكل فترة مشاكلها ووقائعها وأحداثها، وعندما تتنوع تلك الإشكاليات والوقائع والأحداث فلا بد للفكر أن يجد لها حلولاً مقنعة بقدر الإمكان، ووسيلة الفكر هي أعمال العقل وبذل الجهد الذي هو الاجتهاد بالمصطلح المعروف، وسنحاول في هذه الدراسة إلقاء الضوء على هذه التطورات والتغيرات التي طرأت على الفكر الديني في الإسلام، من أجل معرفة نشأة وتطور هذا الفكر إبتداءً من ظهور الإسلام وإنتهاءً بالعصر الحديث. كل ذلك بصورة وجيزة مراعاةً لحدود البحث المعروفة. وهذا الموضوع بالمنهجية التي ذكرناها من الوسائل الناجعة لتأسيس منهجية فكرية واضحة للتعامل مع النصوص الدينية على اختلاف مراتبها الدلالية والثبوتية. ولقد اقتفى الباحث المنهجي التحليلي النقدي مع عرض تاريخي لظهور المذاهب والفرق الفكرية التي أثرت في تأريخ تطور الفكر الديني في الإسلام. والبحث يتكون من عناوين متفرقة حسب مقتضيات البحث من الناحية التاريخية والفكرية. حيث تناول الباحث البداية التاريخية للتطور الفكري في الإسلام، مع التركيز الشديد على المعتزلة التي تعد أول فرقة فكرية كلامية أثرت على مسار الفكر الديني في الإسلام، ثم انشقاق أبي الحسن الأشعري عن الاعتزال. وتأسيسه مدرسة كلامية عريقة، ثم تطرق الباحث إلى ظهور ابن تيمية الحراني الذي أسس مدرسة فكرية أخرى مختلفة عن المدرسة الأشعرية بل مناقضة لها في بعض المجالات الفكرية، وأخيراً تناول الباحث حركة الفكر الديني في العصر الحديث، وخاصة قبل سقوط الدولة العثمانية وبعدها.

لا ريب أن ثمة دراسات عديدة حول هذا الموضوع. لن نتمكن من الإشارة إلى جميعها، وسنذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر، أولاً دراسة لويس غردييه وجورج

قنواقي: فلسفة الفكري الديني بين الإسلام والمسيحية. وهي دراسة مقارنة واسعة تطرقت إلى فلسفة الفكر الديني بين الأديان كالإسلام والمسيحية، تليها دراسة تاريخية تتناول نشأة الفرق والمذاهب وهي للدكتور أحمد محمود صبحي: في علم الكلام دراسة فلسفية لأراء الفرق الإسلامية في أصول الدين، و مثلها كتاب مذاهب الإسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوي، وكذلك على سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، أما دراسة الأستاذ مصطفى عبد الرزاق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، فهو محاولة لتأسيس فلسفة إسلامية نقية بعيدة عن الثقافات الأجنبية: أما محاولتنا هذه فهي إلقاء للضوء على مسار فلسفة الفكر الديني في الإسلام فقط من البداية إلى العصر الحديث، دون اللجوء إلى المقارنة بين الأديان، مركزا على أهم الفرق والمذاهب التي تركت آثارا واضحة في تطوير الفكر الديني فهي ليست دراسة تاريخية محضة، بل هي نقدية تحلية تحاول الإجابة على بعض الأسئلة التي تثار حول بعض الإشكالات الفكرية التي أفرزتها بعض التيارات الفكرية الدينية، ولعل هذه المحاولة ستسهم في بناء وتأسيس منهجية فكرية أصيلة للتعامل مع النصوص الدينية وفق مقتضيات الحياة المتقلبة والمتطورة.

توطئة

كان العرب قبل الإسلام يعيشون حياة ساذجة، لا تمدن ولا حضارة، فقد كانوا قبائل متناطحة، يغزو بعضهم بعضا، والتاريخ يخبرنا عن معارك عديدة وقعت أيام الجاهلية، وقد أشار القران الكريم إلى الحرب الطويلة بين قبيلتي الأوس والخزرج، قال تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.¹ فقد من الله على تينك القبيلتين عندما جمعهما على الإخوة الحقيقية الصادقة كان العرب يعتمدون الحضارتين الفارسية والرومية من الناحية العمرانية والصنائع وما شاكل ذلك، أما من الناحية الأيدولوجية - وهذا الذي يهمنا - فقد كانوا وثنيين يعبدون الأصنام في مكة، وهذه الأصنام البالغ عددها ثلاثمائة وستين صنما

¹ سورة آل عمران الآية 103.

استوردها لهم (عمرو بن لحي)، لأنه هو أول من غير دين إبراهيم، وحمل العرب على عبادة الأصنام، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى عقوبته في جهنم².

وقد تطرف العرب في عبادتهم للأصنام مما دفعهم إلى نحتها وصناعتها والتفنن فيها، وتعليقها في بيوتهم والأماكن الخاصة بغية التبرك والتفائل والعبادة، والغريب أن بعضهم كان يحول قوت يومه إلى صنم معبود، حتى إذا ما نفذ صبره جوعاً، انقض عليه وسد به رمقه، لقد ترسخت هذه الأيدولوجية في أذهان العرب، فغدت عقيدة راسخة، علماً أنه كان هناك رجال صالحون في ذلك العهد، أمثال ورقة بن نوفل³ يدعون إلى التوحيد أي الديانة المسيحية الصحيحة، ولكن كان تأثيرهم طفيفاً مقابل العقيدة الوثنية السائدة في مكة وضواحيها، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذته زوجته خديجة بنت خويلد إلى ورقة بن نوفل لتخبره الحقيقة التي رآها النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء، ثم أخبره عن طبيعة مسيرة الأنبياء والرسول عليهم الصلاة والسلام⁴.

² ولفظ الحديث: " رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبا بني كعب هؤلاء يجر قصبه في النار". رواه البخاري في باب إذا انفطت الدابة، رقم الحديث (1136) ومسلم في باب النار يدخلها الجبارون رقم الحديث (5096) ولفظ لمسلم.

³ هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشي الأسدي كان ممن رغب عن عبادة الأوثان، وسأل عن الدين الحنيف، وقدم اللقاء مع زيد بن عمرو بن نفيل، توفي أول ما تبدي جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان ورقة قرأ الكتب.

⁴ عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حجب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ قال ما أنا بقارئ قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ قلت: ما أنا بقارئ فأخذني، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق} فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن عبد العزى بن عم خديجة، وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا ريب أن مهمة الأنبياء هي الإصلاح، وخاصة في الجانب الفكري والعقدي، فقد بعث الله الأنبياء والمرسلين لإصلاح الناس، وهدايتهم إلى الطريق الصحيح، وهو عبادة الله وحده، وأنه لا شريك له، قال تعالى { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }⁵. وقال أيضا { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ }⁶. فلقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ليكمل رسالته أسوة بإخوته من الأنبياء والرسل السابقين، وقد شاءت قدرة الله أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم المبعوث من العرب⁷، فقد بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بالإصلاح الفكري، لأنه الأساس والركيزة الأولى لبناء الإنسان، فعندما يصبح الإنسان سليم الفكر، صحيح المعتقد، أو بعبارة أخرى عندما تصبح عقلية الإنسان سليمة وصحيحة ستنجو هذه العقلية من التبعية والتقليد الأعمى، وعندها ستفكر وتتجه نحو الخير والصالح والإصلاح، ولعل هذه المهمة كانت شاقة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد عانا كثيرا من قومه وبني جلدته من الاضطهاد والتعذيب والتهجير، وإلى محاولة القتل والاغتيال، ولا ريب أننا لن نقف طويلا عند هذا الجانب العاطفي التاريخي، بل سنتحول إلى الجانب الآخر، وهو الحديث عن الذين آمنوا برسالته، واستطاعوا أن يفكروا ويتدبروا فلسفة رسالته، فقد آمن برسالته فقام من العرب، ومن غير العرب أمثال سلمان

وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى يا ليتني فيها جذعا ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أومخرجي هم، قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي.

⁵ سورة الأنبياء الآية 25.

⁶ سورة النحل الآية 16.

⁷ قد يظن ظان أن الله تعالى قد بعث الانبياء والرسل من بين العرب فقط، ولكن الحقيقة عكس ذلك، فإن العرب على ما يبدو من أقل الأمم حظا باحتضان الأنبياء والرسل، فقد ثبت عن أبي ذر الغفاري (رضي الله عنه) أنه قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: ثلاثمائة ألف وعشرون ألفا، قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جما غفيرا، ثم قال: يا أيها ذر أربعة سريانيون: آدم وشيث وأخنوخ وهو إدريس، وهو أول من خط بالقلم، ونوح، وأربعة من العرب: هود وشعيب وصالح ونيبك محمد (صلى الله عليهم وسلم). رواه ابن حبان في صحيحه، باب ما جاء في الطاعات وثوابها رقم الحديث (362).

الفارسي (ت36هـ) وصهيب الرومي (ت38هـ) وبلال الحبشي (ت20هـ)، هذه المجموعة استطاعت أن تفهم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وتدرك فلسفتها وكنهها وحقيقتها، وأنها ناموس إلهي من النواميس السابقة، إذن كانت عقيدة هؤلاء غاية البساطة والسذاجة، لا تعقيد ولا غموض ولا ألغاز، بل هي كلمات واضحة من الوحي الإلهي بلسان عربي مبين، غايتها هداية الناس وإخراجهم من عبادة الأوثان إلى عبادة إله واحد لا شريك له، ولهذا لا نجد صحابيا يعاني من فهم آية قرآنية، أو يناقش في طرح إشكالية تتعلق بقضية من قضايا الدين، لأنهم عرب أقحاح خلّص نزل القرآن الكريم بلغتهم، وعليه، فإن المناقشات والمناظرات كانت حول مسائل تزيد إيمان الفرد، وترتقي به إلى درجات العلو والكمال، مثل الحديث عن مراتب الصبر والشكر، ونعيم الجنة وهيب جهنم، والخوف والرجاء والمحبة، ووساوس الشيطان، وملذات الدنيا ونزواتها وملاهيها، والتقوى والورع والزهد وما شاكل ذلك، يقول ابن قتيبة الدينوري (ت276هـ): "وكان المتناظرون فيما مضى يتناظرون في معادلة الصبر بالشكر، وفي تفضيل أحدهما على الآخر، وفي الوساس والخطرات ومجاهدة النفس وقمع الهوى، فقد صار المتناظرون يتناظرون في الاستطاعة والتولد والظفرة والجزء والعرض والجوهر⁸ فهم وأثبون يخبطون في العثرات، قد تشعبت بهم الطرق، وقادهم الهوى بزمان الردى"⁹. ويقول المقرئزي (ت845هـ): "ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي، ووقف على الآثار السلفية، علم أنه لم يرد قط مع طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم على اختلاف طبقاتهم، وكثرة عددهم أنه

⁸ هذه المصطلحات الكلامية الفلسفية تكتظ بما كتب العقائد والفلسفة، وسنعرّفها بصورة وجيزة خوفاً من الخروج عن حدود البحث ومقاصده، أولاً الاستطاعة: هي أن القدرة متقدمة على مقدرها، غير مقارنة به، وتسمى أيضاً قوة وطاقة. ثانياً التولد: هو أن يحصل الفعل من فاعله بتوسط فعل آخر كحركة المفتاح بحركة اليد. ثالثاً الظفرة: هي أن يكون الجسم الواحد في مكان، ثم يصير إلى المكان الثالث، ولم يمر بالثاني على جهة الظفرة. رابعاً الجزء: وهو الذي يسمى بالجزء الذي لا يتجزأ، وهو مذهب الذرة المعروف، ويسميه المتكلمون بالجواهر الفرد، حيث إن الجسم يجوز أن يفرقه الله سبحانه، ويظل ما فيه من الاجتماع حتى يصير جزءاً لا يتجزأ. خامساً العرض: هو الذي لا يقوم بنفسه. سادساً الجوهر: هو القائم بنفسه، انظر: بدوي: عبد الرحمن: مذاهب الإسلاميين ص178 وما بعدها، وكذلك ص360.

⁹ أبو محمد بن مسلم بن قتيبة الدينوري: الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1405هـ، 1995م) ص11.

سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى شيء مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة في القرآن الكريم، وعلى لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، بل كلهم فهموا معنى ذلك، وسكتوا عن الكلام في الصفات¹⁰. لقد كان هم الأوائل من الصحابة العمل دون الجدل، والتقوى دون الفتوى، والاتفاق لا الشقاق، وتعد هذه الحقبة من أفضل الحقب، لكونها كانت حقبة نقية تقية صافية بوجود رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ظهراني أصحابه، يعلمهم أمر دينهم، ويحجب عن كل إشكال، ويحل كل مشكلة تطرأ عليهم، ولعل طبيعة البيئة العربية التي انفردت بأيدولوجية معينة جعلت المناخ خاليا من الإشكاليات الفكرية والإيدولوجية المتباينة، فمعلوم أن البيئة المتنوعة فكريا وعقديا وأيدولوجيا وسياسيا تفرض نوعا خاصا من التفكير يستحيل أن يكون ساذجا وعاديا، بل سيكون معقدا ومبدعا، وربما مشاغبا في بعض الأحيان، وخاصة عندما تطرح بعض الأسئلة الملفتة للنظر والتفكير، والبيئة العربية الساذجة آنذاك لم تختلط بالثقافات الأخرى المتنوعة، ولهذا عندما دخل الأعاجم - وهم غير العرب - في الإسلام أصبحت البيئة مختلفة ومتنوعة تماما، حيث ظهرت الأفكار والنظريات والتصورات والمعتقدات المتعددة، ولما كان ذلك كذلك غدت البيئة غاية التعقيد والإشكال، حيث بين فترة وأخرى تبرز مذاهب وحركات وجماعات وفئات لها تصوراتها وأفكارها ومعتقداتها الخاصة بها مختلفة عن العقيدة الرسمية السائدة، ومن ثم تقوى فتتحول إلى تيار جارف يحاول السيطرة على الآخرين بفرض آرائها وأفكارها، هذه هي طبيعة البيئات التي تجمع بين لابتها التنوع الفكري والعقدي والأيدولوجي، بخلاف البيئات الساذجة التي لها عقيدة واحدة غاية الوضوح والبيان، وتحافظ بكل طاقتها الذود عنها، ضد تحريف المحرفين، وتحريف المخرفين.

إن طبيعة الإسلام تنافي العزلة والانغلاق لكون دينا عالميا للبشرية كافة، فقد خرج من الجزيرة العربية، وانتشر في أصقاع العالم، حيث دخل فيه غير العرب من الفرس والكورد والترك والأمازيغ والحبش وغيرهم، وآمنوا برسالة الإسلام، وأسهموا في بناء الثقافة والحضارة الإسلامية، وعندما أسلم هؤلاء كانوا أصالة أصحاب حضارة وتقدم وتمدن ودين وثقافة،

¹⁰ تقي الدين أبو العباس المقرئ: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (بيروت، دار صادر، د.ت)

لكنهم دخلوا في الدين الجديد لأسباب موضوعية مقنعة في نفوسهم، ولا يخفى أن الإنسان عندما يدخل في دين جديد، لا يمكن أن يتخلى عن ماضيه الثقافي والحضاري والفكري كلياً، وحتى لو تمت التخلية عن الماضي بمعنى الكلمة، فإن طريقة التفكير ستبقى كما هي في بعض نواحيها، ولهذا نجد الأعاجم أثروا كثيراً في تلك البيئات المنغلقة، ونقل بعضهم تصوراتهم وقناعاته الفكرية، وأدخلها في أذهان العوام، سواء أدرك ذلك أم لم يدرك، ولعل بعضهم تعمد ذلك كالزنادقة المعروفين في التاريخ، وبعضهم ربما لم يلاحظ ذلك، بل كانت نيته سليمة طيبة، مع وجود التناقض الصريح بين الماضي الذي تخلى عنه، والحاضر الذي تخلى به، والذي يريد الباحث أن يصل إليه، أن البيئة النبوية كانت قائمة على الوحي المجرد، ولم تكن مؤوفة بأفات الجدل والمناظرة والمرء وما إلى ذلك، فلما ولت تلك الحقبة، وتلتها حقبة أخرى ذات خصال وصفات أخرى، وخاصة حقبة التلاقح الحضاري والثقافي بين الأمم المختلفة، وتعقدت البيئات وتنوعت، وحدثت مشاكل فكرية ومذهبية وأيدولوجية مما دفع المفكرين إلى الحوار والجدل والرد والنقض، واللجوء إلى قانون التأويل كما يسميه الغزالي، فكل جماعة لها تأويلاتها الخاصة للنصوص الدينية قرآناً وسنة، مما حولها إلى مدارس فكرية لها دعائها ومنظورها وفلاسفتها ومتكلموها وأشباعها، وهذه الجماعات صنفان: جماعات ومذاهب سياسية دينية كالخوارج والشيعة وغيرها، ومذاهب فكرية دينية كالمعتزلة والأشعرية والماتريدية وغيرها.

إن بعض النصوص الدينية قرآناً وسنة يقتضي ظاهرها التناقض، لكنها في الحقيقة ليست كذلك، لأن التناقض أصالة في الفهم لا في أصل النص، ولهذا نجد الآيات لها تاويلات وتفسيرات عدة، وعندما أرسل علي بن أبي طالب وفداً إلى الخوارج وصاهم بقوله: " لا تناظرهم بالقرآن، فإن القرآن حمال وجوه"¹¹. فالقرآن الكريم يحتمل معاني متعددة، لا يمكن القطع بتفسير واحد إلا في الآيات التي تعرف بقطعية الدلالة، أما الآيات التي تعرف بظنية الدلالة فإن لها تأويلات كثيرة، ومثل هذه الآيات يمكن الرجوع إلى السنة النبوية الصحيحة في تأويلها، ولهذا قال يحيى بن أبي كثير (ت180هـ): " السنة قاضية على

¹¹ انظر القصة كاملة: أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، تحقيق: بركات يوسف هبود (بيروت، دار الأرقم، ط1، 1420هـ، 1999م) 367/3.

الكتاب، وليس الكتاب قاضيا على السنة"، وقال مكحول(ت118هـ): "القرآن أحوج إلى السنة، من السنة إلى القرآن"¹². وهذا المفهوم مستنبط من قوله تعالى { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }¹³ وعندما تبقى الآيات تتحمل وجوها عديدة، وليس ثمة سنة قاضية، فإن باب التأويل يبقى مفتوحا على مصراعيه، فالتأويلات الكثيرة للنصوص الدينية ظاهرة طبيعة نتيجة الاختلاف والتباين في فهم الإنسان لها، وهذه التأويلات تبقى بين القبول والرفض من قبل أشياع المدارس الفكرية المختلفة وفق معاييرهم المعينة، وعليه فإن التأويل غدا تكأة لتلك المذاهب جميعها بلا استثناء لشرعنة نفسها، وأنها تستقي جذورها من السلف السابقين، وهذه الحقبة تختلف بلا ريب عن سابقتها، فهي حقبة معقدة عويصة وذلك لوجود الكم الهائل من المذاهب والجماعات الفكرية المختلفة سياسية كانت أو دينية.

بداية الاختلاف الفكري

بعد أن فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، والتحق بربه، وقع الاختلاف بين الصحابة في حقيقة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل فارق الحياة أم رفعه الله إليه، وهذا خلاف نظري لم يدم طويلا، حتى علم الصحابة حقيقة ذلك، في كونه موتا حقيقيا نهائيا، ثم وقع الاختلاف العملي بين المهاجرين والأنصار حول من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم السقيفة، وهذا الاختلاف ليس عقديا فكريا، بل هو خلاف إداري تم تسويته بطريقة هادئة وحكيمة، تولى زمام أمرها الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد بدأ الخلفاء الراشدون، وخاصة أبو بكر وعمر بن الخطاب(رضي الله عنهم) باقتفاء المنهج الذي رسمه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يثبت أن خلافا عقديا فكريا وقع خلال تلك المرحلة، وذلك لأنها قضايا عقدية وضحتها لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول البغدادي(ت429هـ): "كان المسلمون عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم على منهج واحد في أصول الدين وفروعه غير من

¹² قال الفضل بن زياد: سمعت أحمد بن حنبل، وقد سئل عن الحديث الذي روي، أن السنة قاضية على الكتاب، فقال: ما أجسر على هذا أن أقوله، ولكن أقول: إن السنة تفسر الكتاب وتبينه. محمد بن نصر بن الحجاج المرزوي

أبو عبد الله: السنة، تحقيق: سالم أحمد السلفي(بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1408، 1هـ) 33/1.

¹³ سورة النحل الآية 44.

أظهر وفاقاً، وأضمر نفاقاً، وأول خلاف وقع منهم اختلافهم في موت النبي عليه السلام، فزعم قوم منهم أنه لم يمت، وإنما أراد الله رفعه إليه كما رفع عيسى بن مريم إليه، وزال الخلاف¹⁴. وعليه فإن الاختلاف الفكري والعقدي لم يكن له وجود في عهد الصحابة، ما وقع من اختلافات هي مسائل اجتهادية فرعية لا علاقة لها بالعقائد والأصول الدينية، وهي لا تقتضي تكفيراً ولا تشريكاً، فكل مجتهد مأجور، فإن كان مصيباً فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد كما في الحديث¹⁵.

وقد اختلف مؤرخة الإسلام في تحديد البداية الحقيقية للاختلاف الفكري العقدي، يرى بعضهم أن الخوارج هم أول الذين خالفوا أصول أهل السنة، حيث تورطوا في قضية التكفير، ورأوا أن مرتكب الكبيرة كافر مخلد في النار، وعليه فإن التكفير أول بدعة ظهرت في الإسلام، وقد كفر الخوارج المسلمين لمجرد ذنوب ارتكبوها من غير تفرقة بين مستحلها وبين من يرتكب وهو يدرك خطأ ذلك، وأهل السنة متقفون على أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنوب ما لم يستحلها¹⁶. وقد تطرف الخوارج حتى كفروا بأفضل الصحابة كالخليفين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ثم ظهرت فكرة التشيع، والولاء المطلق للخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد كثرت فرق الشيعة بعضها ألهمت علي بن أبي طالب كالمخطيئة¹⁷ والسبئية¹⁸، والبعض الآخر اكتفت بالتمييز أي

¹⁴ عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة، مكتبة دار التراث، د.ت.ط) ص35.

¹⁵ نص الحديث عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله (ص) يقول: إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر. رواه البخاري باب أجر الحاكم إذا أصاب، رقم الحديث (6805) ورواه مسلم، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد رقم الحديث (3240).

¹⁶ ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1426هـ، 2005م) ص303.

¹⁷ المخطيئة: أصحاب أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي الأجلع مولى بني أسد، وهو الذي عزا نفسه إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه، فلما وقف الصادق على غلوه الباطل في حقه تبرأ منه ولعنه وأمر أصحابه بالبراءة منه وشدد القول في ذلك، وبالغ في التبري منه واللعن عليه، فلما اعتزل عنه ادعى الإمامة لنفسه، زعم أبو الخطاب أن الأئمة أنبياء ثم آلهة، وقال بإلهية جعفر بن محمد وإلهية آبائه رضي الله عنه وهم أبناء الله وأحباؤه، والإلهية نور في النبوة، والنبوة نور في الإمامة، انظر: أبو الفتح عبد الكريم الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق: أبو محمد محمد فريد (القاهرة، المكتبة التوفيقية، د.ط.ت) 185/1-186.

تفضيله على بقية الخلفاء، وخاصة أبي بكر الصديق، لكون علي أولى بالخلافة منه عقلاً ونقلاً كالزيدية، وتأنك الفرقتان أى الخوارج والشيعة بمشتقاتها سياسيتان ودينيتان، لا يمكن عدّهما من الفرق والمذاهب الفكرية الفلسفية الدينية، وقد تطرقنا إليهما مراعاة لتسلسل التاريخ وتطوره، يبدو من خلال حديث المقرئ عن الاختلاف والتفرق بعد جيل الصحابة أن مشكلة القدر هى أول المشاكل الفكرية ظهوراً، وكان أول من قال بذلك فى الإسلام خالد بن معهد الجهنى¹⁹، وقد تبرأ الصحابه منه، وأخذوا فى ذمه على رؤوس الخلائق²⁰، ولعله لا تناقض بين الرأيين، وذلك لأنه ربما لم يعد المقرئ اختلاف الخوارج والشيعة اختلافاً فكرياً عقدياً، بل هو سياسى لا حاجة لذكره فى هذا النطاق أى النطاق الفكرى البحت، ولكن حتى ولو كان اختلاف الخوارج والشيعة سياسياً بناءً على الافتراضية الآنفه الذكر، فإنه يبقى إختلافاً معتبراً ينبغى ذكره، لأن له صلة بتأريخ التسلسل الفكرى وبمرحلة التطور الفكرى لفلسفة الفكر الدينى فى الإسلام، وعليه فإن مشكلة التكفير سابقة لمشكلة القدر، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إليهم فى حديث ثابت²¹ وذكر بعض صفاتهم وورد أن علياً رضى الله عنه قاتلهم، وتاب منه الكثير، حدث هذا

¹⁸ السبئية أو السبائية: أصحاب عبد الله بن سبأ الذي قال لعلي كرم الله وجهه: أنت أنت يعني أنت الإله فنفاه إلى المدائن، زعموا أنه كان يهودياً فأسلم، وكان فى اليهودية يقول فى يوشع بن نون وصي موسى عليهما السلام مثل ما قال فى علي رضى الله عنه، وهو أول من أظهر القول بالنص بإمامة علي رضى الله عنه... وزعم أن علياً حي لم يمت ففيه الجزء الإلهي، ولا يجوز أن يستولي عليه، وهو الذي يجيء فى السحاب، والرعد صوته، والبرق تبسمه، وأنه سينزل إلى الأرض بعد ذلك فيما لأرض عدلاً كما ملئت جوراً. انظر: الشهرستاني: الملل والنحل 1/181.

¹⁹ المقرئ: الخطط 2/356.

²⁰ وردت آثار كثيرة فى ذم القدرية، رواها مالك وأبو داود والترمذي والبيهقي والحاكم فى المستدرک على الشيخين والطبراني فى معاجمه الثلاثة، ولقد استقصى تلك الآثار جميعها ابن بطة العكبري فى كتابه الإبانة الكبرى بروايات مختلفة عديدة.

²¹ ونص الحديث عن أبي سعيد الخدري قال بعث علي وهو باليمن إلى النبي صلى الله عليه وسلم بذهبية فى ترتيبها فقسّمها بين الأقرع بن حابس الحنظلي ثم أحد بني مجاشع وبين عيينة بن بدر الفزاري وبين علقمة بن علاثة العامري ثم أحد بني كلاب وبين زيد الخيل الطائي ثم أحد بني نهبان فتغيظت قريش والأنصار فقالوا يعطيه صنديد أهل نجد ويدعنا قال إنما أتألفهم فأقبل رجل غائر العينين ناتئ الجبين كثر اللحية مشرف الوجنتين مخلوق الرأس فقال يا محمد اتق الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم فمن يطبع الله إذا عصيته فيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني فسأل رجل من القوم قتله أراه خالد بن الوليد فمنعه النبي صلى الله عليه وسلم فلما ولى قال النبي صلى الله عليه وسلم إن من

كله قبل مشكلة القدر والجبر, ولما كان ذلك كذلك, أى أن الخوارج أول الفرق ظهورا, فإن المرجئة ظهورا كنتيجة طبيعية لأفكار الخوارج المتطرفة والغالية, حيث إن المرجئة فرقة هينة لينة مرنة فى التعامل مع المعاصى والذنوب, فقد كانوا عكس الخوارج يعدون مرتكب الكبيرة مؤمنا حقيقيا, وأنه لا يضر مع الإيمان ذنب ولا معصية, بل يجب إرجاء ذلك كله, إى تأخيره لرب العالمين يوم القيامة, والملاحظة أن أكثر هذه الفرق والمذاهب ظهرت نتيجة ردود أفعال وأفكار متناقضة ومتباينة, حيث تظهر فكرة ما تتطرف وتتشدد وتترتمت, كل ذلك يؤدى بطريقة عادية واعتادية إلى ظهور فكرة أخرى مقابلة لها مناقضة ومعاكسة, وهذه الديناميكية فى الفكر الدينى لها ثمار يانعة فى تطوير حركة الفكر والعقل فى مجال تطور الإنسان شريطة عدم تحولها إلى العنف وإلغاء الآخر كما حصل ذلك فى بعض الفترات والأحقاب, وهكذا بالنسبة لمذهب الجبرية الذى يقابل مذهب القدرية, فالقدرية ترى أن القدر ممتنع لأن الذى يعلم ما سيكون لم يحسن منه أن يأمر وهو يعلم أن العبد سيعصيه, وينهى وهو يعلم أن العبد لا يطيعه, وفى مقابل هذه الفرقة ظهرت الجبرية, هذا المذهب الذى يجرد الإنسان من إرادته وقدرته ورغبته وطاقته, وتصوره آلة تتحكم فيه قوانين خارجية, لا صلة له بها, ثم ظهرت مذاهب أخرى انتقلت إلى طور آخر, لتناول نصوصا دينية ذات صلة بالذات الإلهية, حيث خاضت تلك المذاهب على اختلاف مشاربها ومسالكها فى الصفات الإلهية بشقيها العقلية الوجودية والخبرية, ومن هذه المذاهب مذهب الجهمية²² نسبة إلى جهم بن صفوان, وقد أخذ جهم أفكاره من جعد بن درهم, ويقوم المذهب أساسا على تعطيل صفات الله عن معانيها الحقيقية, فإن خالد بن عبدالله القسرى لما قبض على جعد بن درهم, قال فى مسجد الكوفة يوم الأضحى المبارك, أيتها الناس ضحوا يقبل الله ضحاياكم, فإنى مضح بالجعد بن درهم, إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم

ضعضى هذا قوما يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد". رواه البخارى باب التفسير رقم الحديث(3095) ومسلم باب ذكر الخوارج وصفاتهم رقم الحديث(1763).

²² الجهمية: أصحاب جهم بن صفوان, وهو من الجبرية الخالصة ظهرت بدعته بترمد, وقتله سلم بن أحوز المازني بمرو فى آخر ملك بني أمية, وافق المعتزلة فى نفي الصفات الأزلية, وزاد عليهم بأشياء. الشهرستاني: الملل والنحل/1/99.

خليلا، ولم يكلم موسى تكليما، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبحه في أصل المنبر²³.

ظهور المعتزلة

يعد المعتزلة من أعظم المتكلمين، وأفضل الفلاسفة في الإسلام، حيث استطاعوا أن يؤسسوا مدرسة فكرية فلسفية علمية أصلية، لها أصولها وقواعدها وعقائدها بصورة منهجية واضحة، ولها متكلموها وفلاسفتها ومنظروها ومفكروها وأشياؤها، بغض الطرف عن الانشاقات الفكرية، داخل هيكلتها، فذلك أمر طبيعي لطبيعة المدارس الفكرية، غير التقليدية.

من الصعب جدا تحديد البداية التاريخية لظهور وتأسيس هذه الجماعة، فهناك نظريات متعددة مختلفة، بعضها مختلف منحول، والبعض الآخر قابل للنقاش والدراسة، وعندما تختلف الآراء وتباين، سيكون من الصعب التعويل على رأى معين دون غيره، إلا إذا كانت الأدلة والقرائن ترجحه، وهى فى كنفها ليست قوية، ولا يمكن التعويل عليها، ولذلك نجد بعض الآراء تعول على مجرد الاسم، أى أسم المعتزلة من الناحية اللغوية، ويذكرون قصة حسن البصرى(ت110هـ) عندما سأله سائل عن مرتكب الكبيرة، هل هو مؤمن أم كافر، فقبل أن يجيب على السؤال، قال واصل بن عطا(ت131هـ)²⁴: إنه ليس بمؤمن، ثم اعتزل المجلس، فقال الحسن: اعتزلنا واصل، وكان جالسا فى زاوية من زوايا

²³ الجعد بن درهم، هو أول من قال بخلق القرآن، قال ابن عساکر وغيره، وقد أخذ الجعد بدعته عن بيان بن سمعان، وأخذها بيان عن طلوت ابن أخت لبيد بن أعصم زوج ابنته، وأخذها لبيد بن أعصم الساحر الذي سحر الرسول صلى الله عليه وسلم عن يهودي باليمن، وأخذ عن الجعد الجهم بن صفوان الحزري... وأخذ بشر المريسي عن الجهم، وأخذ أحمد بن أبي داود عن بشر، وأما الجعد فإنه أقام بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن... حتى قتله والي الكوفة خالد بن عبد الله القسري. ابن كثير: البداية والنهاية (بيروت، دار المعارف، د.ط.ت)350/9.

²⁴ صاحب مذهب يعرف باسمه الواصلية، وهو أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزال الأثغ، كان تلميذا للحسن البصرى يقرأ عليه العلوم والأخبار، وكانا فى أيام عبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك، وبالمغرب الآن منهم شردمة قليلة فى بلد إدريس بن عبد الله الحسيني الذي خرج بالمغرب فى أيام أبي جعفر المنصور، وهو رأس المعتزلة، ومن أئمة البلغاء والمتكلمين: الشهرستاني: الملل والنحل 67/1.

المسجد في البصرة²⁵، وهذه الرواية إن صحت تدل على أن حسن البصرى هو الذى أطلق عليهم ذلك الاسم، بينما المعتزلة الأوائل يرون هذا الاسم صحيحا، وقد أطلقوه على أنفسهم للمدح، وليس من باب الذم الذى يذكره أهل السنة، وهم يرون أنفسهم الفرقة الوسط بين أهل السنة والخوارج، فى قضية مرتكب الكبيرة، فالخوارج يقولون: إن مرتكب الكبيرة كافر فى النار، بينما أهل السنة يرون مرتكب الكبيرة مذنبا لا كافرا، وأنه سيدخل الجنة بعد أن يأخذ جزاءه، إلا إذا استحل الذنب، أما المعتزلة فاختاروا المنزلة بين المنزلتين، فى كون مرتكب الكبيرة ليس كافرا ولا مؤمنا، لكنه مخلد فى النار، إذن هم يوافقون أهل السنة فى كونه ليس كافرا، ويوافقون الخوارج فى كونه مخلدا فى النار.

وبالرغم من كثرة مدارس المعتزلة المتنوعة، وكثرة مفكرتها ومتكلميها إلا أن جميع المعتزلة اتفقوا على جملة من العقائد الدينية، تعد من الأصول الدينية المعتزلية، التي لا يمكن مخالفتها، بل كل من يخالفها لا يعد معتزليا، وهي أصول عقدية لا تتبدل ولا تتغير، نذكرها على صورة نقاط، وهي كالآتي:

- (1) التوحيد
- (2) العدل
- (3) الوعد والوعيد
- (4) المنزلة بين المنزلتين
- (5) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر²⁶.

²⁵ وأصل القصة كالآتي: "دخل واحد على الحسن البصري فقال يا إمام الدين، لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج عن الملة، وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرحئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقادا، فتفكر الحسن فى ذلك، وقبل أن يجيب، قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا، ولا كافر مطلقا، بل هو فى منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر، ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل، فسمي هو وأصحابه معتزلة". الشهرستاني: الملل والنحل 68/1-69.

²⁶ أبو الحسن الأشعري: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين تحقيق: هلموت ريتز (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط 3. د.ت) ص 278.

ولا ريب أن هذه الأصول بحاجة إلى تأصيل وشرعنة من قبل أعمدة المدرسة، وخاصة من قبل متكلمي المعتزلة ومنظريها، ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى ظهور أسلوب معين وطريقة معينة للردود عن هذه العقائد، ودرء الشبه عنها، والرد على مخالفيها من أتباع الديانات والفلسفات والمذاهب الأخرى المعروفة في التاريخ، وهذه الطريقة تتمثل في علم الكلام المعروف، ولهذا عندما نعرف علم الكلام تتجلى وظيفته الحقيقية ومهامه، فهو: "علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير وإلزامه إياها بإيراد الحجج عليها، ودفع الشبه عنها"²⁷. وعليه، فإن علم الكلام صناعة معتزلية أصالة، ابتدعه القوم كوسيلة عقلية فكرية للحوار مع الآخرين على اختلاف مذاهبهم ودياناتهم، فقد كان المعتزلة في جدال عنيف مع أهل الأديان المختلفة، وخاصة المسيحيين منهم في قضية خلق القرآن الكريم، تلك المشكلة التي غدت أشهر مباحث علم الكلام، ولعلاقتها بكلام الله تعالى، ثم تحول جدالهم إلى داخل الدائرة الإسلامية، فوقع الجدل والخصام بين المعتزلة وبين مؤيدي مذهب السلف يتزعمهم الإمام أحمد بن حنبل صاحب المحنة المعروفة حول مسألة خلق القرآن الكريم، وقد تطرف المعتزلة إلى درجة اللجوء إلى العنف والقوة والإرهاب الفكري لفرض آرائهم وأفكارهم ضد المخالفين مما أوقعهم في مأزق اجتماعي وسياسي وفكري، ولو لم يلجأوا إلى ذلك لكان لهم دور أكبر من الناحية الاجتماعية والسياسية والفكرية، وإن كان دورهم الفكري لا يفتأ قائماً وحاضراً بقوة في مناهج المدارس الفكرية المختلفة في العالم الإسلامي.

إن ذلك الصراع بين المعتزلة والسلف حول بعض المسائل العقدية الدينية، وخاصة في مسألة خلق القرآن الكريم، ولجوء المعتزلة إلى تلك الأساليب اللاحضارية، وخاصة بحق الأئمة المعروفين جعل الناس يتدمرون منهم، وينظرون إليهم نظرة ارتياب وشك وقلق، ولو تصفحنا قصة أحمد بن حنبل الطويلة، والتي استقصاها طاش كبرى زاده (ت968هـ) في كتابه لألفينا مدى العنف والإرهاب الذي مارسه المعتزلة ضد علماء السلف، وخاصة بحق

²⁷ عضد الدين الإيجي، كتاب المواقف في علم الكلام تحقيق: عبد الرحمن عميرة (بيروت، دار الجيل، ط1،

أحمد بن حنبل²⁸. وقد كان المعتزلة هم أول الذين بدأوا بإشعال مثل هذه الصراعات الفكرية والمناقشات العقديّة الكلامية مع مؤيدي مذهب السلف، ولما كان ذلك كذلك، بقيت أفكارهم وأصولهم في طور الشك والريب وعدم الارتياح من قبل الناس، وخير مثال على ذلك أن علم الكلام الذي ابتدعه المعتزلة بقي من الأمور المحدثّة التي أنكرها السلف بشدة، وقد ألفوا رسائل ومؤلفات في ذمه وأهله، وما أكثر النصوص وآثار السلف على ذلك²⁹، وقد بقي علم الكلام المعتزلي مذموماً مطلقاً عند علماء السلف قاطبة، لأن الذين ابتدعوه كانوا بالأمس القريب ألد أعداء السلف، فقد ذمه أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وسفيان بن عيينة وسفيان الثوري والبخاري ومسلم ويحيى بن معين وابن خزيمة وابن منده وغيرهم خلق كثير، ما يأتي به المعتزلة ليس فيه خير في نظر السلف، لأنه بلا ريب سيتضمن أموراً ومسائل ومباحث كلامية صرفة مناقضة لقواعد الإسلام وأصوله الثابتة، بقول ابن قتيبة الدينوري (ت276هـ) وهو يشكو مما خاض فيه المتكلمون من مباحث في علم الكلام بعيداً عن مناهج السلف: "فقد صار المتناظرون يتناظرون في الاستطاعة والتولد والطفرة والجزء والعرض والجوهر فهم واثبون يخبطون في العشرات، قد تشعبت بهم الطرق، وقادهم الهوى بزمان الردى"³⁰.

ولا مجمحة أن رد فعل السلف كان قويا وشديداً تجاه كل ما جاء به المعتزلة، وإنه من الخطأ رفض المعتزلة كلياً، فإنه يمكن الاستفادة من أساليب المعتزلة العظيمة في حوارهم مع أتباع الديانات الأخرى، تلك الأساليب المصقولة من الناحية التجريبية والتطبيقية. إذن بقي علم الكلام معتزلياً صرفاً غير معترف به من قبل علماء السلف للأسباب الآنفة الذكر، ومعلوم أن المعتزلة لجأوا إلى علم الكلام³¹ للرد على أشياع الديانات الأخرى،

²⁸ طاش كبري زاده، أحمد بن مصطفى: مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، تحقيق د. علي دحروج (بيروت، مكتبة لبنان، ط1، 1998م) ص224-225..

²⁹ الهروي، عبد الله بن محمد بن علي: ذم الكلام، تحقيق د. سميح دغيم (بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1994م) حيث ذكر نصوصاً كثيرة لعلماء السلف في التحذير من علم الكلام وذمه وذم أهله.

³⁰ ابن قتيبة الدينوري: الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ص11.

³¹ إنما سمي علم الكلام لأن علم الكلام لأنه كما يقول الإيجي: "بإزاء المنطق للفلاسفة أو لأن أبوابه عنونت أولاً بالكلام في كذا أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه حتى كثر فيه التناحر والسفك فغلب عليه، أو لأنه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات ومع الخصم". انظر الإيجي: كتاب المواقف 46/1.

وبالأخص النصارى في مسألة خلق القرآن الكريم، ثم: "إن تعريب الفكر اليوناني كان له أكبر الأثر في نشأة علم الكلام وخاصة أن الإسلام في دمشق واجه الفكر المسيحي، وفي بغداد تلاقى مع الفكر اليوناني"³². فالمعتزلة دافعوا عن نظريتهم القائلة بأن القرآن الكريم مخلوق ردا على النصارى المعتقدين بألوهية المسيح، فرأى المعتزلة أن نفي خلق القرآن الكريم مضاهاة للنصارى، فكون القرآن مخلوقا، وهو كلمة الله يقتضي مخلوقية المسيح، لكونه كلمة الله، ما قاله السلف في عدم مخلوقية القرآن يلزم منه أن المسيح غير مخلوق، ولهذا شددوا النكير على السلف، ولجأوا إلى العنف.

إن طبيعة البيئة المختلفة والمتنوعة تفرض هذا النوع من التفكير، وقد تحدثنا عن هذا في البداية، فلا ضير أن يلجأ المعتزلة أرباب الفكر والعقل، إلى هذه الوسيلة للرد على الخصوم والمخالفين، وينبغي الإشارة إلى أمر آخر مهم جليل، وهو أن اللجوء إلى إعمال العقل والفكر في المسائل العقديّة والكلامية للحوار مع المخالفين أمر طبيعي، لجأ إليه علماء السلف أنفسهم، فهذا أحمد بن حنبل ألف كتابا عظيما في الرد على الجهمية والزنادقة، والكتاب مليء بالمناقشات والمناظرات الفكرية الكلامية العقلية، والأمثلة عديدة، إلا أن الفرق بين المعتزلة وغيرهم يكمن في طبيعة الرد والحوار، ومضامين تلك المناقشات، فقد كانت مباحث علماء السلف سهلة واضحة تجمع بين العقل والنقل وتؤلف بين الفكر والوحي، بخلاف المعتزلة الذين تطرفوا في إعمال العقل إلى درجة رفض كثير من العقائد الدينية الثابتة بالنصوص القطعية، ولجوء بعض علماء السلف إلى علم الكلام ليس بالمفهوم المعتزلي المنهجي، أمر فرضه عليهم الواقع المتقلب والمتغير، ذلك من أجل الرد على المخالفين من أصحاب المذاهب الغالية والمخالفة لأصول أهل السنة والجماعة، ثم جاءت مرحلة أخرى وخاصة بعد ترجمة الثقافات الأجنبية- من قبل علماء النصارى وبعض علماء الإسلام في عهد الأمويين- كالتراث الديني الهندوسي والتراث الفلسفي اليوناني، فقد قام علماء الإسلام بتأليف الكتب والرسائل في مناقشتهم والرد عليهم، وخاصة الجانب

³² لويس غردييه، جورج قنوتاي: فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ترجمة صبحي الصالح وفريد جبر (بيروت، دار العلم للملايين، ط1، 1978م) 75/1.

الفلسفي منه، وهذا الواقع الجديد يفرض طريقة أخرى في التفكير والأسلوب للتعامل مع المخالفين.

غدا رفض علم الكلام على اطلاقه من قبل أئمة السلف قاعدة ثابتة لا تتغير ولا تبدل، فكل من يحاول الخوض فيه يعد مبتدعا حسب منظومة السلف العقدية، ومعلوم أن هذه المواقف المتشددة تجاه علم الكلام كانت ردود أفعال، وهي وقتية لا تباقي، وذلك لأن علم الكلام آلة يمكن سوء استمالها، ويمكن في الوقت نفسه حسن استعمالها. فالمعتزلة أساءوا استعمالها في رأي أكثر الباحثين، ولذلك يأتي علماء آخرون يرون علم الكلام ضرورة للذود عن العائد الدينية ضد شبهه المخالفين، يقول ابن خلدون (ت799هـ) وهو يعرف علم الكلام ووظيفته الأساسية: "علم يتضمن الحجاج عن القائد الدينية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة"³³. وبعد أفول نجم المعتزلة نجد تعاريف الذين جاءوا بعدهم لعلم الكلام تضاهي ما كان يدندن حوله المعتزلة، ولكن بصورة أكثر وضوحا، وبطريقة تقترب من مناهج علماء السلف، وذلك لتضييق الهوة بين علم الكلام - المعتزلي أصالة من حيث القواعد والأسس والضوابط - وبين مناهج السلف.

السؤال الذي يطرح نفسه الآن، من حاول الجمع بين علم الكلام وعقائد السلف، أو بعبارة أخرى أكثر وضوحا، متى بدأ مشروع المصالحة الفكرية بين علم الكلام وعقائد السلف، ولا شك أن هذه المحاولات تروم وتهدف إلى شرعنة علم الكلام. والاعتراف به بعد هذا الأمد الطويل من الرفض والذم له ولأهله، ولمن يخوض فيه، ولأنه - كما قلنا سابقا أن علم الكلام صناعة معتزلية، كانت في مرحلة من المراحل التاريخية كارثة ومصيبة على المسلمين، وخاصة عندما تذكر محنة علماء السلف وما عانوه من اضطهاد وتعذيب وحبس وقتل بسبب المعتزلة، يقول أبو العباس بن ساعد: "لم يصبر في المحنة إلا أربعة كلهم من مرو: أحمد بن حنبل، وأحمد بن نصر الخزاعي المضروب عنقه، ومحمد بن نوح بن ميمون المضروب، ونعيم بن حماد قد مات في السجن مقيدا". وقد نجا الشافعي ويحيى بن معين

³³ ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة: تحقيق درويش الجويدي (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1416هـ، 1996م) 458/1.

من الفتنة بحيل، فقليل إن الأول لجأ إلى التورية، والثاني استدل بقوله تعالى { مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }³⁴ ثم قال أجبنا خوفاً من السيف"³⁵.

يبدو أن الشهرستاني هو أول من أشار إلى تلك المصالحة الفكرية، أو الجمع بين علم الكلام وعقائد السلف حيث يقول وهو يتحدث عن هذا المشروع الذي نشأ وتطور "حتى انتهى الزمان إلى عبدالله بن سعيد الكلابي (ت240هـ)³⁶ وأبي العباس القلانسي (ت255هـ)³⁷ والحارث بن اسعد المحاسبي (ت343هـ)³⁸ وهؤلاء من جملة السلف إلا أنهم باشروا علم الكلام، وأيدوا عقائد السلف بحجج كلامية، وبراهين أصولية،³⁹ ومن الذين أشاروا إلى هذه المسألة ابن عساكر الدمشقي (ت571هـ)⁴⁰ لكنه زاد على الأئمة الثلاثة الذين ذكرهم الشهرستاني عبدالعزيز المكي (ت854هـ)⁴¹ هؤلاء الأئمة وغيرهم

³⁴ سورة النحل الآية 106.

³⁵ طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة ص222-226

³⁶ أبو عبدالله بن سعيد بن كلاب بضم الكاف وتشديد اللام القطان البصري، متكلم من العلماء يقال له "ابن كلاب" من كتبه "الصفات" و"خلق الافعال" و"الرد على المعتزلة" رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه، وكان يلقب كلاباً لأنه كان يجر الخصم إلى نفسه بيانه وبلاغته، وأصحابه هم الكلابية. انظر محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبدالله سير أعلام النبلاء تحقيق شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم الرقسوسى (بيروت، مؤسسة الرسالة ط1413، 9هـ) 174/11، خير الدين الزركلى: الأعلام (بيروت، دار العلم للملايين، ط9، 1986م) 90/4

³⁷ أبو أحمد القلانسي شيخ الصوفية، القدوة، أبو أحمد مصعب بن أحمد البغدادي، صاحب أبي الحمزة، قال ابن الأعرابي: الحكايات عن أخلاقه ومذاهبه يطول بها الكتاب. انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء 170/13.

³⁸ المحاسبي الزاهد العارف، شيخ الصوفية، أبو عبدالله الحارث بن أسد البغدادي المحاسبي من أكابر الصوفية، صاحب التصانيف الزهدية، له كتب كثيرة في الزهد، وأصول الديانة، والرد على المعتزلة والرافضة، كان عالماً بالأصول والمعاملات، واعظاً مبكياً، وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم، ولد ونشأ بالبصرة، مات ببغداد، وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره. الذهبي: سير أعلام النبلاء 12 / 110، والزركلى: الأعلام 153/2.

³⁹ الشهرستاني: الملل و النحل 93/1

⁴⁰ علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقي: تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام ابي الحسن الأشعري (بيروت، دار الكتاب، ط1404، 3هـ) ص116.

⁴¹ عبد العزيز بن يحيى بن العزيز بن مسلم بن ميمون الكنانى المكي الذى ينسب إليه كتاب الحيدة، وهو قليل الحديث ويقال كان يلقب بالغول لدمامة منظره، قدم بغداد زمن المأمون، وجرت بينه وبين بشر المريسي مناظرة في

كانوا من علماء السلف المؤيدين لأحمد بن حنبل، وكانوا من أصحاب الحديث - مصطلح كانوا يستعملونه لمن يتمسك بالحديث والأثر ويتجنب الجدال والنظر - ولكنهم تجاوزوا ذلك، ودخلوا في مسالك علم الكلام للاستفادة منها، والرد على المخالفين لعقائد السلف، ونجد نصا قيما لابن فورك الأصفهاني (ت406هـ) يشير الى ذلك بقوله: "لما كان أصحاب الحديث نوعين: فريق اشتغل بالرواية، وفريق اشتغل بالنظر والجدل مع المخالفين في تأييد المذهب، وتوهين ما خالفه"⁴². ومن الواضح أن الفريق الأول هم أصحاب الذين اشتغلوا بالرواية، أمثال الأئمة الأربعة والأوزاعي والسفيانين ونعيم بن حماد والبخاري ومسلم ويحيى بن معين وغيرهم، أما الفريق الثاني فقد اشتغل بالجدل والنظر وعلم الكلام، وهم ابن الكلاب والقلانسي والمحاسبي وعبدالعزیز المكي وغيرهم، ومن ثم من بعدهم أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي.

وعليه، فقد استطاع الفريق الثاني أعنى مؤيدو علم الجدل والكلام أن يشرعنوا علم الكلام، ويصبغوا عليه صبغة شرعية، ومن هنا خرج علم الكلام في كونه مذموما مرفوضا منبوذا الى علم أصيل مستقل يعترف به شرعا وعقلا. لا يمكن الاستغناء عنه، فهو خير وسيلة للدفاع عن العقائد الدينية ضد شبه المخالفين .

ظهور أبي الحسن الأشعري

لسنا هنا بصدد الحديث عن أبي الحسن الأشعري⁴³، وتاريخ حياته وسيرته ومناقبه وما الى ذلك كدأب بعض القدامى وبعض الباحثين المعاصرين، ولكن سنقتصر على دوره وإسهاماته في تطور الفكر الديني في مسيرته الطويلة، كان الأشعري معتزليا أربعين عاما، ثم

القرآن، انظر: ابن السبكي، أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي: طبقات الشافعية الكبرى تحقيق، عبد الفتاح محمد الحلو ومحمد محمود الطناحي (الجيزة، مطبعة هجر، ط1992م) 145/2.

⁴² أبو بكر بن محمد بن الحسن ابن فورك: مجرد مقالات أبي الحسن الأشعري، تحقيق دانيال جيمارية، (بيروت، دار المشرق، د.ط.ت) ص10.

⁴³ هو علي بن إسماعيل بن بن أبي بشر، واسمه إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن صاحب رسول الله أبي موسى الأشعري، ولد سنة(260هـ) وتوفي(ت324هـ)، وهو المعروف بإمام المتكلمين، مؤسس مذهب الأشعري. انظر ترجمته مفصلا: ابن عساكر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ص35 وما بعدها، ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى 347/3.

تخلى عن الاعتزال لاسباب عديدة لا مجال لذكرها ومناقشتها، وقد كانت جل مناقشاته مع شيخه وزوج أمه أبي علي الجبائي (ت303هـ) شيخ المعتزلة ومتكلمهم البارع⁴⁴ فكانت أجوبة الجبائي غير كافية لإرواء غليل الأشعري، بل كانت في تصوره هشة لا يمكن التعويل عليها في الحوار والجدال مع المخالفين، ولذلك ولأسباب عديدة بلا ريب أعلن الأشعري تحوله من الاعتزال إلى نقيضه، وهو مذهب السلف، وهذا يبدو من خلال مصنفاته ورسائله التي ألفها، وقد أبدى الرجل إعجابه بأحمد بن حنبل وصبره وصلابته في عقيدته، ومواقفه الصريحة والواضحة من المعتزلة، فقد وصفه بأوصاف تنبئ عن مدى إعجابه به، وحب له، وإيمانه بمذهبه بطريقة منهجية علمية⁴⁵. ويبدو أن هذه الكلمات قالها بعد أن تحول عن مذهبه الاعتزالي، وإن كان بعض الباحثين يرون غير ذلك، وعليه، فإن الأشعري ترك الاعتزال، وأعلن ذلك على الملأ، يقول ابن النديم (ت385هـ): "كان أولا معتزليا، ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن في المسجد الجامع بالبصرة، في يوم الجمعة رقى كرسيا ونادى بأعلى صوته، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني، فأنا أعرفه نفسي، أنا فلان بن فلان كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا يرى بالأبصار، وأن أفعال البشر أنا أفعالها، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة، فخرج بفضائحهم ومعائبهم"⁴⁶.

وبعد أن ترك الاعتزال بدأ بالدفاع عن عقائد السلف، والرد على المخالفين من المذاهب الأخرى، وخاصة المعتزلة، لأنه كان خبيرا بمذهب المعتزلة، ومن الواضح أن

⁴⁴ محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي أبو علي، من أئمة المعتزلة، ورئيس علماء الكلام في عصره، وإليه نسبة الطائفة الجبائية، له مقالات وآراء انفرد بها في المذهب، نسبته إلى جبي من قرى البصرة، اشتهر في البصرة، ودفن بجبي، له تفسير حافل مطول، رد عليه الأشعري. الزركلي: الأعلام 256/6.

⁴⁵ يقول الأشعري: "فإن قال قائل: قد أنكروا قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي تقولون، وديانتكم التي بها تدينون، قيل له: قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب الله ربنا عز وجل، وبسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وما روي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل، نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مشوبته قائلون، ولما خالف قوله مخالفون، لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق، عند ظهور الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيع الزائغين، وشك الشاكين، فرحمة الله عليه، من إمام مقدم، وجيل معظم، وكبير مفخم". الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل: الإبانة عن أصول الديانة تحقيق: محمد بشير عيون (دمشق، دار البيان، ط5، 1424هـ، 2004م) ص43.

⁴⁶ ابن النديم، محمد بن إسحاق أبو الفرج: الفهرست (بيروت، دار المعرفة، 1398هـ، 1978م) 257/1.

الأشعري اقتفى نفس المنهج الذي كان يسلكه عندما كان معتزليا، ذلك المنهج الذي ذمه السلف قاطبة، ولكن الفرق أن الأشعري هنا يدافع عن عقائد السلف، بينما في السابق كان يدافع عن أصول المعتزلة الخمسة، ولهذا شك كثير من علماء السلف في عودة الأشعري إلى مذهب السلف، وتركه النهائي للاعتزال، منهم أبو عمرو البسطامي (ت408هـ) حيث يقول: "كان أبو حسن الأشعري أولا ينتحل الاعتزال، ثم رجع فتكلم عليهم، وإنما مذهبه التعطيل، إلا أنه رجع من التصريح إلى التمويه"⁴⁷. والذي يبدو للباحث أن الأشعري كان صادقا في تركه للاعتزال، وصادقا في إيمانه بمذهب السلف، لكنه كان متكلمًا ممتازًا، ومن الصعب جدا أن يتخلى الرجل عن منهجيته، بمجرد تحول فكري وأيدولوجي، فالفكر شيء، والمنهج شيء آخر، لأن الأخير أداة وآلة في التعامل مع النصوص الدينية، وخاصة تلك التي لها علاقة بالعقائد والأصول، والحقيقة أن الأشعري انضم إلى الجماعة التي جمعت بين علم الكلام وعقائد السلف أمثال ابن كلاب والقلايسي والمحاسبي، وقد سبق ذكرهم، حيث بدا له أن هذه الطريقة هي المثلى للدفاع عن العقائد الدينية ضد شبه المخالفين، وقد وجد الرجل ضالته في هذه الطريقة، وقد أشار صاحب طبقات الحنفية إلى أن الأشعري انضم إلى ابن كلاب وأمثاله، لكنه يرى أنه اتخذ مذهبا لنفسه"⁴⁸. وهذا الكلام شديد، لكن الشطر الأخير ليس في محله، وذلك لأن الأشعري لم يتخذ لنفسه مذهبا، بل سلك مسلك سابقه من الجامعين بين علم الكلام وعقائد السلف، إذن لم يأت الأشعري بشيء جديد يكون بدعا، بل حاول أن يؤصل تلك الطريقة الجامعة الآنف الذكر، فالسابقون وأعني الجامعين بين علم الكلام وعقائد السلف، لم يفصلوا القول في علم الكلام، ولم يفرقوا بين محموده ومذمومه، وبين من يجوز في حقه ومن لا يجوز له الخوض في علم الكلام، ولعل جل همهم في شرعنة علم الكلام، لأنه كان المشكل الأساس والرئيس، ولم يتسن لهم الحديث عن ذلك، لأن علماء الحديث وخاصة الحنابلة كانوا يذمون كل من يخوض في علم الكلام، بل يبدعونهم، ولهذا عانى الأشعري

⁴⁷ الهروي: ذم الكلام ص279.

⁴⁸ عبد القادر بن أبي الوفاء محمد بن أبي الوفاء القرشي أبو محمد: الجواهر المضية في طبقات الحنفية (كراتشي، مير محمد كتب خانة، د.ط.ت) 248/1.

بعد ذلك من المشكلة نفسها، لكنه كان قوي الإرادة، مجدا ومخلصا في منهجيته، فواصل السير على منهجيته الجامعة، وطريقته الوسط، وقد فصل القول بين علم الكلام المحمود والمذموم، فألف رسالته المعروفة (رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام) حيث قال فيها -ويبدو مخاطبا الحنابلة ومن شايعهم-: "فإن طائفة من الناس جعلوا الجهل رأس مالهم، وثقل عليهم النظر والبحث عن الدين، ومالوا إلى الضلال، وزعموا أن الكلام في الحركة والسكون والجسم والعرض والألوان والأكوان والجزء والظفرة وصفات الباري عز وجل بدعة وضلالة"⁴⁹. ولقد بقي الأشعري على منهجه الواضح، واستطاع أن يؤثر في حركة الفكر الديني في الإسلام على مدار التاريخ، ولا عجب أن نرى أن أشهر مدرسة فكرية كلامية عرفت باسمه.

لم يكن الأشعري وحده في الساحة الفكرية آنذاك، فقد كان في عصره عالمان آخران يضاهايانه من الناحية الفكرية، أما الأول فهو أبو منصور الماتريدي (ت333هـ) من بلاد ما وراء النهر⁵⁰، والثاني أبو جعفر الطحاوي (ت321هـ) من مصر⁵¹، لكن في الحقيقة كان الرجلان مختلفين⁵²، فالماتريدي كان كالأشعري، أي من أهل النظر والجدل،

⁴⁹ الأشعري: استحسان الخوض في علم الكلام (بيروت، دار الكتب العقلية، ط1، 1421هـ، 2000م) ص89-90.

⁵⁰ محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي، من كبار العلماء تخرج بأبي نصر العياضي، كان يقال له إمام الهدى، له كتاب التوحيد وكتاب المقالات وكتاب الرد على أهل الأدلة للكعبي، وكتاب أوهام المعتزلة وكتاب تأويلات القرآن وهو كتاب لا يوازيه فيه كتاب بل لا يدانيه شيء من تصانيف من سبقه في ذلك الفن، وله كتب شتى، مات سنة (333هـ) بعد وفاة أبي الحسن الأشعري بقليل، وقبره في سمرقند. القرشي: الجواهر المضية في طبقات الحنفية 201/1 وما بعده.

⁵¹ أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك بن سلمة بن سليم بن سليمان بن حباب كذا نسبه مسلمة بن قاسم الأندلسي في صلة تاريخه، الأزدي الحجري المصري أبو جعفر الطحاوي الفقيه الإمام الحافظ، وكان ثقة نبلا فقيها، صاحب كتاب شرح الآثار، كان إماما فقيها من الحنفيين، ولد سنة (229هـ) ومات (320هـ). القرشي: الجواهر المضية في طبقات الحنفية 102/1 وما بعده.

⁵² يقول المقرئ متحدثا عن حقيقة الخلاف بين الأشاعرة والماتريدية: "وبين الأشاعرة والماتريدية أتباع أبي منصور محمد بن محمد محمود الماتريدي، وهم طائفة الفقهاء الحنفية مقلدو الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت، وصاحبيه أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الحضرمي، ومحمد بن الحسن الشيباني من الخلاف في العقائد ما هو مشهور في موضعه،

فهو صاحب كتاب أوهام المعتزلة وكتاب الجدل، أما الطحاوي فكان كأحمد بن حنبل من أهل الحديث والأثر، فهو صاحب شرح معاني الآثار وشرح مشكل الآثار، ولا شك أن مذهب أهل النظر والجدل تغلب وطغى على منهج أهل الحديث والأثر في تلك الحقبة من الزمن، ولا ننسى أثر البيئة في تحديد المناهج ونوع التفكير في التعامل مع الوقائع والأحداث.

لقد استطاع الأشعري بحق أن يؤسس مدرسة فكرية متميزة، كان لها أثرها على امتداد التاريخ، فقد كثر أصحابه وأتباعه وأشياعه، وتخرج من هذه المدرسة الفكرية أساطين من علماء الكلام أثروا في الفكر الديني في الإسلام من الناحية المنهجية والنظرية، خذ مثلا أبو بكر الباقلاني (ت406هـ) وأبو إسحاق الإسفراييني (ت418هـ) وعبد القاهر البغدادي (ت429هـ) والجويني (ت478هـ) والغزالي (ت505هـ) والشهرستاني (ت548هـ) والرازي (ت606هـ) والآمدي (ت631هـ) والبيضاوي (ت685هـ) والإيجي (ت756هـ) وإلى عصرنا الحاضر، وقد انتشر المذهب انتشارا واسعا، والحقيقة أن ثمة أسبابا جمة وراء هذا الانتشار لا مجال للحديث عنها خوفا من الاستطراد، وقد كان هذا الانتشار أحد أسباب تعصب أتباع هذه المدرسة، حيث تعصبوا لمذهب الأشعري إلى درجة أن الأشعرية حق مطلق، وما سواها باطل أو وساوس الشياطين، ولذلك فكل من يخالف هذا المذهب فهو ضال مبتدع، وقد أضحى المذهب من الناحية العملية الممثل الوحيد والوريث الشرعي لما كان عليه السلف الصالح في السابق، ولقد أشار الغزالي إلى هذه الطائفة بقوله: "فإني رأيتك أيها الأخ المشفق والصديق المتعصب موغر الصدر، منقسم الفكر، لما قرع سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين، والمشايخ المتكلمين، وأن العدول عن مذهب الأشعري ولو في قيد شبر كفر، ومباينته ولو في نزر ضلال وخسر"⁵³.

وهو إذ تتبع يبلغ بضع عشرة مسألة، كان بسببها في أول الأمر تباين وتنافر، وقدح كل منهم في عقيدة الآخر، إلا أن الأمر آل إخر إلى الإغضاء". المقرئزي: الخطط 2/359.

⁵³ الغزالي، أبو حامد: فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، تحقيق محمود بيجو (د.م.ط1، 1413هـ، 1993م) ص13-14.

إلا أن بعض علماء الأشاعرة لم يكونوا مقلدين، حيث خالفوا شيخهم في كثير من المواطن، أمثال الباقلاني والجبوني والإسفراني والجبوني والغزالي وغيرهم، وعليه فإن اللوم كله على المتأخرين من المتعصبين، حيث تطرفوا بصورة مفرطة، وشددوا النكير على مخالفي المذهب، وعلى رأس هذه الفئة المتعصبة السنوسي (ت885هـ) فلو تصفحنا كتبه لوجدنا ردوده العنيفة على مخالفي المذهب في بعض المسائل العقديّة⁵⁴، ثم إن المدرسة الأشعرية نفسها انشقت إلى قسمين: حيث إن بعض أعمدة المذهب الأشعري طغى عليه الجانب الأثري الحديثي، ولذلك لم يكثروا من التأويل لآيات القرآن الكريم والسنة النبوية، أمثال الباقلاني وابن وفورك والبيهقي، بينما الآخرون فتحوا باب التأويل على مصراعيه، وخاصة الجبوني والغزالي والرازي والآمدي وغيرهم، ويبدو تأثير الاتجاهين السابقين لا يزال قائما وموجودا، أعني الاتجاه الأثري الحديثي، والاتجاه النظري والجدلي⁵⁵.

أما بخصوص المدرسة الأشعرية فإن الاتجاه النظري الجدلي الكلامي طغى على الجانب الأثري، وخاصة عند المتأخرين منهم، كالإيجي والجرجاني والسنوسي، ومن بعدهم اللقاني والبيجوري، ومن المعاصرين محمد عبده، ولعل سبب ذلك يرتد إلى بروز مشاكل فكرية مستجدة تتطلب أجوبة وحلولا، وهذا بطبيعة الحال يحتاج إلى إعمال العقل والفكر، ولا يتحقق ذلك إلا باللجوء إلى النظر والفكر والجدل والكلام، وخاصة تجاه الآخر، وأعني به أشياع الديانات الأخرى، فإنه لا يمكن مجادلتهم ومناقشتهم بالنصوص الدينية، لأنهم غير مؤمنين بها أصالة، نعم يمكننا أن نستفيد من مناهج القرآن الكريم والسنة النبوية في الحوار مع الآخر، ولكن أن تصبح النصوص أنفسها الأساس والمنطلق للحوار، فإنه سيكون حوارا عقيما غير ناجح ولا ناجع، فإعمال العقل والفكر والنظر هو السلاح المشترك بين الطرفين المتناقضين، ونعني بذلك بلا ريب بين الديانات المختلفة.

ظهور ابن تيمية الحراني

⁵⁴ خذ مثلا أحد كتبه، شرح السنوسية الكبرى المسمى عمدة أهل التوفيق والتسديد.

⁵⁵ ابن خلدون: المقدمة 456/1.

أكثر الباحثين عندما يتحدثون عن نشأة الفكر الديني وتطوره في الإسلام، لا يقفون عند ابن تيمية الحراني (ت728هـ)⁵⁶، والباحث يجهل أسباب ذلك، ولعل التعصب المذهبي وراء ذلك، مع أن المنهجية العلمية تفرض على الباحثين الحديث عن كل مفردة من مفردات الحياة الفكرية في القديم والحديث، والغريب أن ابن خلدون (ت799هـ) عندما تطرق إلى مسألة الفكر الديني وعلم الكلام ونشأة مدرسة الأشعرية وأساطينها، لم يتحدث عن ابن تيمية الحراني البتة، ولا عند تلامذته من بعده، وقد استغرب مصطفى عبد الرزاق الأمر من ابن خلدون⁵⁷.

ولا ريب أن ابن تيمية جزء كبير من هذا التطور، وقد احتل مساحة واسعة في الفكر الديني في الإسلام، إلا أن انتشار المذهب الأشعري الواسع لفترة طويلة من الزمن جعل الرأي العام لا يعرف غير هذا المذهب، وخاصة عندما تكون السلطة مساندة للمذهب، فإنه سيكون شبه مذهب رسمي، وقد كان الأمر شبيهاً بذلك، يقول المقرئزي (ت845هـ) وهو يتحدث عن مذهب الأشعري وانتشاره وقوته وتأثيره: " بحيث

⁵⁶ تقي الدين أبو العباس أحمد بن شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم بن أبي البركات بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضرم بن محمد بن تيمية الحراني، ولد سنة (661هـ) بجران التي تقع بين أورفا ورها، سجن بقلعة دمشق حتى مات فيها سنة (728هـ) انظر السيوطي: **طبقات الحفاظ**، تحقيق: لجنة من العلماء، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1403هـ، 198م) ص520، والذهبي: **تذكرة الحفاظ** (الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط4، 1390هـ، 1970م) ص1497، والبغدادي، شهاب الدين: **الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب**، (بيروت: دار المعرفة، د. ط. ت) 387/2 وما بعدها، وابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر: **تاريخ ابن الوردي** (النجف: المطبعة الحيدرية، ط2، 1389هـ، 1969م) 408/2. وانظر مفصلاً: ابن عبد الهادي في كتابه **العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، والبزار في **الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية**، وناصر الدين الدمشقي في كتابه **الرد الوافر على من زعم: بأن من سمى ابن تيمية (شيخ الإسلام) كافراً**، الكرمي في **الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية**. أما الحديثة مثل دراسات هنري لاوست الفرنسي وهو من كبار المختصين في ابن تيمية خاصة كتابه **نظريات ابن تيمية في السياسة والاجتماع**، ومحمد كرد علي في **كنوز الأجداد**، ومحمد بمحة البيطار في كتابه **حياة شيخ الإسلام**. وغيرها من المصادر والمراجع العديدة.

⁵⁷ عبد الرزاق، مصطفى: **تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية** (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، د. ط. ت) ص294.

نسي غيره من المذاهب، وجهل حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه⁵⁸ وعليه فإن الأشعري تعني حسب التصور العالم آنذاك العقيدة الحقة التي تمثل ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وما خالفها باطل ومرفوض يجب محاربتة، من أجل سلامة الأمة الإسلامية وعقيدها في خضم المذاهب والأفكار المتباينة، خرج ابن تيمية ليقول على الملأ، إن هذه العقيدة أي الأشعرية فيها أمور ومسائل ومواد تخالف ما كان عليه السلف الصالح، وقد ألف رسائله الشهيرة، وصنف كتبه العظيمة في نقد الأشاعرة، ولعل الفتوى الحموية تعد من أخطر فتاويه التي أجاب فيها عن مسائل العقيدة وخاصة ما لها علاقة بالصفات الخيرية، وقد تحدث المقرئزي عن ابن تيمية وهو بصدد الحديث عن تأريخ تطور الفكر الديني في الإسلام قائلاً: "إلى أن كان بعد السبعمئة من سني الهجرة، اشتهر بدمشق وأعمالها تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحكم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، فتصدى للانتصار لمذهب السلف، وبالغ في الرد على مذهب الأشاعرة، وصدع بالنكير عليهم وعلى الرافضة، وعلى الصوفية، فافترق الناس فيه فريقاً، فريق يقتدي به ويعول على أقواله ويعمل برأيه، ويرى أنه شيخ الإسلام وأجل حفاظ أهل الملة الإسلامية، وفريق يبدعه ويضله ويزرى

⁵⁸ يقول المقرئزي وهو يتحدث عن سر انتشار الأشعرية: "فانتشر مذهب أبي الحسن الأشعري في العراق من نحو سنة ثمانين وثلاثمائة، وانتقل منه إلى الشام، فلما ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر، كان هو وقاضيه صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس الماراني على هذا المذهب، قد نشأ عليه منذ كان في خدمة السلطان الملك العادل نور الدين محمود الزنكي بدمشق، وحفظ صلاح الدين في صباه عقيدة ألفتها له قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري، وصار يحفظها صغار أولاده، فلذلك عقدوا الخناصر وشدوا البنان على مذهب الأشعري، وحملوا في أيام مواليتهم كافة الناس على التزامه، فتمادى الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بني أيوب، ثم في أيام مواليتهم الملوك من الأتراك، واتفق مع ذلك توجه أبي عبد الله محمد بن تومرت أحد رجالات المغرب إلى العراق، وأخذ عن أبي حامد الغزالي مذهب الأشعري، فلما عاد إلى بلاد المغرب وقام في المصامدة يفتقهم ويعلمهم، وضع لهم عقيدة لقفها عنه عامتهم، ثم مات فخلفه بعد موته عبد المؤمن بن علي الميسي، وتلقب بأمير المؤمنين، وغلب على ممالك المغرب هو وأولاده من بعد مدة سنين، وتسموا بالموحدين، فلذلك صارت دولة الموحدين ببلاد المغرب تستبيح دماء من خالف عقيدة ابن تومرت، إذ هو عندهم الإمام المعلوم، المهدي المعصوم، فكم أراقوا بسبب ذلك من دماء خلائق لا يحصيها إلا الله خالقها سبحانه وتعالى، كما هو معروف في كتب التاريخ، فكان هذا هو السبب في اشتهار مذهب الأشعري وانتشاره في أمصار الإسلام، بحيث نسي غيره من المذاهب، وجهل حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه". المقرئزي: الخطط 359/2.

عليه بإثباته الصفات، وينتقد عليه مسائل منها ما له فيه سلف، ومنها ما زعموا أنه حرق فيه الاجماع، ولم يكن له فيه سلف، وكانت له ولهم خطوب كثيرة، وحسابه وحسابهم على الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وله إلى وقتنا هذا أتباع بالشام وقليل بمصر⁵⁹. ولقد عانى ابن تيمية من خصومه جراء هذه الدعوة الجريئة منه، حيث سجن الرجل وعذب إلى أن مات في سجن قلعة دمشق سنة (ت728هـ)، ولكن دعوة الرجل انتشرت، وتأثر بها علماء أجيال، ومن الذين نشروا أفكاره بعده تلامذته، أشهرهم ابن قيم الجوزية (ت751هـ)، لقد استطاع ابن تيمية أن يخرق ذلك الاجماع الموهوم، وأن يبين حقيقة مذهب السلف، وأن ما عند الأشاعرة لا يطابق مذهب السلف، بل يوافق بعضه، والبعض الآخر بحاجة إلى النقد والتحليل، يقول جولد زيهر *Goldzieher*: "إن خصومه سرعان ما أتجهوا إلى الوثام، وتقريب شقة الخلاف، متأثرين بما يشيع في مؤلفاته من روح الجد والغيرة على السنة والإخلاص للدين"⁶⁰.

ويمكن أن نلخص دعوة ابن تيمية، فقد أراد الرجل أن يوسع دائرة أهل السنة، وأن لا تكون محصورة في الأشاعرة، ثم بين أن الأشاعرة في كثير من المسائل خالفوا شيخهم الأشعري، وخالفوا كذلك ما كان عليه السلف الصالح، ثم وضع أن اللجوء إلى فكرة التأويل لم يكن مذهب السلف، بل هو من ابتداع المتأخرين، وخاصة الجويني والغزالي والرازي والآمدي، وقد فصل القول في هذه المسائل في كتابه الكبير (درء تعارض العقل والنقل)، ولكن دعوة الرجل قوبلت بالرفض والنقض والطعن، ولكن مع ذلك فقد تركت آثارها على مر العصور إلى وقتنا الحاضر، وقد أضحت بحق مدرسة فكرية نقدية تنافس المدارس الأخرى كالأشعرية والماتريدية: "إن ابن تيمية حقق ثورة في نظرية المعرفة النظرية والوجود من منظور العقيدة لإبداع فلسفة نظرية ووجودية بديل مما كان سائدا في الفلسفة والكلام اللذين يتأسس عليها الفقه والتصوف"⁶¹. فقد استطاع تلامذته من بعده أن يؤصلوا هذه المدرسة من الناحية المنهجية والفكرية، فقد تمكن تلامذته من السير على

⁵⁹ المقرئزي: الخطط 2/359.

⁶⁰ جولد زيهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة ليف من العلماء (بيروت، دار الرائد العربي، د.ط. 1946م) ص236.

⁶¹ أبو يعرب المرزوقي: إشكالية تجديد أصول الفقه (دمشق، دار الفكر، ط1، 1426هـ، 2006م) ص53.

منهجيته في مختلف الفنون الإسلامية، فهذا ابن قيم الجوزية (ت751هـ) يؤلف كتابين قيمين هما (الصواعق المرسلّة على الجهمية والمعتلة) و(شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والتعليل) وفق منهج شيخه، ومن تلامذته ابن كثير الدمشقي (ت774هـ) صاحب (تفسير القرآن العظيم) والذهبي (ت748هـ) صاحب كتاب (العلو للعلي الغفاري)، حيث سارا على المنهج نفسه في المسائل العقديّة والفكرية، وإنما اقتصرت على هؤلاء الثلاثة لكونهم من أشهرهم.

ويبدو أن مدرسة ابن تيمية الحراني مع قلة أنصارها وأشياعها مقارنة بالمدارس الأخرى في العالم الإسلامي، تعد من أقوى المدارس من الناحية المنهجية والفكرية، فهي مدرسة فكرية منهجية واضحة، وليست معقدة، وسبب ذلك طغيان الجانب الحديثي الأثري عليها، فأعلام هذه المدرسة لهم باع طويل في الحديث النبوي وعلومه، يكفي أن مؤرخ الإسلام الذهبي من أعلامها، بل إن تأثير ابن تيمية تجاوز حدوده حتى تأثر بمنهجيته من علماء المذاهب الأخرى، ولعل خير مثال على ذلك شارح العقيدة الطحاوية الإمام ابن أبي العز الحنفي (ت792هـ)، فإننا لو تصفحنا شرحه، لوجدنا نصوصا عديدة لابن تيمية في كتابه، وهذه ليست سرقة علمية، وإنما كان ذلك خوفا من مواجهة الرأي العام آنذاك، لأنه كان يعادى كل ما ينسب إلى ابن تيمية الحراني.

فلسفة الفكر الديني في العصر الحديث

إن الحديث عن الفكر الديني في هذه الحقبة الزمنية ذو صلة بالدولة العثمانية التي كانت تمثل القوة الإسلامية الوحيدة في نظر أوروبا، لأنها عمرت أكثر من خمسة قرون من القرن الرابع عشر إلى عام (1924م)، فالفكر الديني في هذه الحقبة له مرحلتان، الأولى تبدأ بجهود الإصلاحيين من المفكرين المسلمين داخل الدولة العثمانية، أما المرحلة الثانية فهي تبدأ بعد سقوط الدولة العثمانية، ومن رجالات المرحلة الأولى جمال الدين الأفغاني (ت1897م)، حيث قدم الكثير في سبيل الإصلاح داخل الدولة العثمانية، ومن أبرز جهوده الفكرية كتابه (الرد على الدهرية) الذي ألفه باللغة الفارسية، وترجمه تلميذه محمد عبده (ت1905م) إلى اللغة العربية، ومنها الدعوة إلى تأسيس الجامعة الإسلامية

لتوحيد المسلمين، وخاصة التقريب بين السنة والشيعة، ولكنه اتهم بالزندقة والإلحاد مثل وحدة الوجود ووحدة الأديان، وأنه شخصية باطنية⁶².. ثم حاول تلميذه محمد عبده أن يعالج المشاكل الفكرية المستجدة آنذاك، وقد ركز الشيخ على الجانب الفكري والعقدي في رسالته الشهيرة (رسالة التوحيد) فتناول الفكر الديني، ودعا إلى علم كلام جديد في مواجهة التحديات الفكرية الكثيرة، ولكنه هو الآخر واجه مشاكل عدة، يقول محمد حسين هيكل (ت1956م): "لقي في حياته من رجال الدين عنتا، ورمي بالكفر والإلحاد، وهو صاحب رسالة التوحيد، والقوة التي لم تعد لها في عصرها قوة للذود عن حياض الإسلام والمسلمين ضد من طعنوا عليه من أهل الأديان الأخرى"⁶³. هذان العلمان كانا أشهر من حاولوا تجديد الفكر الديني وإصلاحه، ويمكن أن نذكر بعضا من المفكرين من الذين انتصروا لهذه المنهجية في التفكير، ولكن في جوانب أخرى من الفكر.

● خير الدين التونسي (ت1889م): السالك في أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك.

● عبد الرحمن الكواكبي (ت1902م): طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد.

● قاسم أمين (ت1908م): تحرير المرأة.

فهؤلاء لم يألوا جهدا في إصلاح الدولة العثمانية في مواجهة التحديات الكبرى التي أفرزتها الحداثة الغربية أو التمدن الأوروبي، لأنها كانت في الواقع تحديات عنيفة، ولقد تحدث عنها خير الدين التونسي قائلا: "إن التمدن الأوروبي تدفق سيله في الأرض، فلا يعارض شيء إلا استأصله قوة تياره المتتابع، فيخشى على الممالك المجاورة لأوربا من ذلك التيار إلا حذا حدوه، وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية، فيمكن نجاتهم من الغرق"⁶⁴. ومن أبرز تلك التحديات ظهور مفهوم الدولة القومية *National State* حيث طغى هذا المفهوم على المفاهيم الأخرى السائدة، كالخلافة والأمة، ولعل الأفغاني كان يحاول مقارعة هذا المفهوم،

⁶² محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط5، 1402هـ، 1982م) ص69.

⁶³ محمد حسين هيكل: الدين والعلم ص135 مقال منشور ضمن سلسلة مقالات متنوعة بعنوان حرية الاعتقاد الديني تصنيف وتقديم: محمد كامل الخطيب (دمشق دار بتر، ط1، 2005م).

⁶⁴ فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث (الأردن، دار الشروق، د.ط. 1988م) ص393.

من وراء فكرة تأسيس الجامعة الإسلامية لتوحيد المسلمين، وعليه فقد استطاعت الأحزاب القومية مثل جمعية تركيا الفتاة (1889م) وجمعية الاتحاد والترقي (1899م) القضاء على الخلافة العثمانية، وكان عبد الحميد الثاني (1918م) آنذاك السلطان الرابع والثلاثين، وتسلم بعده السلطان رشاد محمد الخامس عام (1909م)⁶⁵. واستعان هذا الأخير بضباط الجيش، وعلى رأسهم الجنرال مصطفى كمال باشا الذي عرف فيما بعد بأتاتورك، حيث في هذه المرحلة تغلغل القوميون الأتراك في هيكل الدولة، واستطاعوا السيطرة على مقاليد الحكم، وألغوا الخلافة نهائياً عام (1924م)، وكان ذلك بقيادة مصطفى كمال باشا أتاتورك (ت 1938م)، حيث أسس الأخير دولة على أسس مدنية بعيدة عن الدين، وعن كل ما له صلة بالمفاهيم الدينية، على غرار بعض الدول المتقدمة في أوروبا، وقد تحقق ما كان يتوقعه ويخشاه التونسي، هذه هي المرحلة الأولى، أما المرحلة الثانية فهي تبدأ كما أشرنا سابقاً بعد سقوط الدولة العثمانية، وهي مرحلة تتناول تداعيات إلغاء الخلافة العثمانية، لا ريب أن ثمة اتجاهين، أحدهما يأسف على السقوط ويعنف الكماليين، ومن أبرز الذين مثلوا هذا الاتجاه آخر شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية مصطفى صبري (ت 1954هـ)، فقد ألف كتاباً حول ذلك بعنوان (النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة)، وقد رفض فكرة فصل الدين عن الدولة، وحاربها، ورد على المفكرين المصريين أمثال المراغي ومحمد فريد وجددي ومحمد حسين هيكل وغيرهم، أثناء إقامته في القاهرة، أما الاتجاه الثاني فقد دعا بصراحة إلى فصل الدين عن الدولة⁶⁶، ونبذ

⁶⁵ محمد فريد بك الحامي: تاريخ الدولة العثمانية، تحقيق إحسان حقي (بيروت، دار النفائس، ط2، 1403هـ) ص708.

⁶⁶ اختلف الباحثون في أول من قال بفكرة فصل الدين عن الدولة في الإسلام، يرى بعضهم أن محمد عبده هو أول من قال بذلك، يقول أحد الباحثين عنه: "فهو أول من وضع جرثومة العلمانية في الفكر المصري والعربي، ونعني بجرثومة العلمانية أصل العلمانية، وإمكانية تطورها في الفكر الإسلامي اللاحق، وعندي أن الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرزاق ما هو إلا الصيغة النهائية لتلك الجرثومة التي زرعها محمد عبده في الفكر الإسلامي، وهذا يعني أن العلمانية على الرغم من عدم استخدام هذا المصطلح من قبل التيار الديني الإصلاحية هي فكرة أصيلة من أفكار هذا التيار مما يدحض القول بأنها رؤية مفكرين مغتربين عن عالمهم". أحمد بركاوي: محمد عبده ومسألة الحكم وجرثومة العلمانية في فكره ص50-51 من البحوث المقدمة لمؤتمر دمشق لمركز الدراسات الإسلامية بعنوان تجديد الخطاب الديني (دمشق، دار التجديد. د. ط. ت).

النموذج العثماني، ويمثل هذا الاتجاه شيخ من شيوخ الأزهر وقاض من قضاة مصر، ألا وهو الشيخ علي عبد الرازق (ت1966م)، حيث ألف رسالة أسماها (الإسلام وأصول الحكم)، وذلك بعد عام من سقوط الدولة العثمانية، وكان هدف الشيخ معارضة نقل الخلافة من تركيا إلى مصر، إلا أن دعوة الشيخ لم تلق آذانا صاغية، فحوكم الرجل، ولا جرم أن دعوة الشيخ لم تكن في صالح الملك فؤاد الذي كان يريد السلطة لنفسه، لو تم نقلها من تركيا، ولقد تحدث طه حسين عن الشيخ علي عبد الرازق قائلاً: "إن مشايخ الأزهر استغلوا الدين لنفوذهم، كان كحال الكهنوت في أوروبا في القرون الوسطى لمناهضة حرية الرأي، فقد فصل الأستاذ، وأنكر كتابه وحوكم صاحبه، وفصل من مشيخة الأزهر، ومن تداعيات ذلك أن أخرج وزير من الوزارة، واستقال معه طائفة من أصحابه"⁶⁷. وبعد سقوط الدولة العثمانية ظهر تياران اثنان، الأول التيار التغريبي والثاني التيار التحديثي، ولكل تيار مفكروه ومنظروه.

التيار التغريبي

هو ذلك التيار الذي يدعو إلى القطيعة مع التراث الإسلامي، ويدعو في الوقت نفسه إلى اقتفاء النموذج الغربي حلوه ومره، خيره وشره، لأن ذلك سيكون سبب رقينا وتطورنا وتمدنا وتحضرنا، وبخلاف ذلك سنكون في الحضيض والسفول والتقهقر، يقول أحد دعاة هذا الاتجاه وهو الدكتور طه حسين وهو يوصي أبناء مصر باقتفاء النموذج الغربي، لأن الطريقة المثلى هي: "أن نسير سيرة الأوربيين، ونسلك طريقهم، لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يجب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب، ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخادع"⁶⁸. وبعد ترويجه للتغريب بدأ بمرحلة أخرى وهي التشكيك في التراث، حيث له نص صريح يشكك في القرآن الكريم قائلاً: "للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً، ولكن ورود هذين الأسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن إثبات القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة، ونشأة العرب

⁶⁷ طه حسين: بين العلم والدين ضمن سلسلة مقالات حرية الاعتقاد الديني ص130-131.

⁶⁸ طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر (د.م.مطبعة المعارف.1944م) ص38.

المستعربة فيها"⁶⁹. ومن رواد هذه المدرسة التغريبية إسماعيل مظهر (ت1962م) صاحب مجلة العصور، حيث كان منبها بمذهب داروين (ت1882م). حول النشوء والارتقاء، فقد ألف كتابا أسماه (ملتقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء)⁷⁰، حيث قال وهو يثني على هذا المذهب: "إن لمذهب النشوء والارتقاء من الأثر في فروع العلوم الحديثة ما يجعلني أعتقد بأن هذا المذهب جدير بأن يقف أكبر شطر حياته وجهوده في سبيل درسه ونقله إلى العربية"⁷¹. وقد ترجم الكتاب شبلي شميل (ت1917م). وأشياء هذا التيار ينطبق عليهم ما قاله ابن خلدون بأن المغلوب: "مولع أبدا بالافتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده"⁷². وإن كانت الغلبة في فلسفة ابن خلدون يعني غلبة القوة والسيطرة والشوكة، ولكن الغلبة في مقصودنا هنا غلبة التطور والتقدم والتمدن والتكنولوجيا.

التيار التحديثي

هو ذلك التيار الذي يحاول الجمع بين الأصالة والمعاصرة متمثلة بالعودة إلى التراث الإسلامي بعد تصفيته وتنقيته مما لا يصلح إلا لوقته، وبين المعاصرة وهو الاستفادة من التقدم الغربي من النواحي الدنيوية والتنظيمية والإدارية، وذلك لأن لكل عصر مشاكله، ولكل فترة قضاياها المستجدة، فلا يمكن نقل قضاياها ومشاكلنا إلى الوراء، بل لا بد من الاجتهاد لإيجاد حلول جديدة لها، لأنها تتطلب أجوبة سريعة وعلاجا عاجلا، ومن الذين سلكوا هذا المنهج.

● محمد رشيد رضا (ت1935م) صاحب مجلة المنار المعروفة.

⁶⁹ طه حسين: في الشعر الجاهلي (د.م. دار النهر، ط1996، 3م) ص65

⁷⁰ ولد تشارلز داروين البريطاني Charles Robert Darwin سنة (1809م)، من أعظم علماء البيولوجيا في القرن التاسع عشر، صاحب كتاب أصل الأنواع، وأصل الإنسان، مات سنة (1882م).

⁷¹ أحمد جاد عبد الرازق: فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي (أمريكا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1416هـ، 1995م) 614/2.

⁷² ابن خلدون: المقدمة 147/1.

- أحمد رافع الطهطاوي(ت1936م): تخلص الإبريز في تلخيص باريس.
- محمد إقبال(ت1938م): تجديد الفكر الديني في الإسلام.
- عبد الحميد باديس(ت1940م): العقائد الإسلامية.
- شكيب أرسلان(ت1946م): لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟.
- مصطفى صبري(ت1945م): موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين.
- بديع الزمان سعيد النورسي(ت1960م) صاحب رسائل النور.
- علي عبد الرازق(ت1966م): الإسلام وأصول الحكم.
- مالك بن نبي(ت1973م): شروط النهضة.
- محمد الطاهر بن عاشور(ت1973م): تفسير التحرير والتنوير.

ولا يفتأ الصراع قائماً بين دعاة التغريب ودعاة التحديث، ولكن يبدو أن الاتجاه التحديثي أقوى حجة وبرهانا، وأكثر منطقية ومعقولة، لأنه وسط بين غلو التغريب وتطرف التقليد، ولهذا نجد أشياعه أكثر، وينضاف إليه أن بعض دعاة التغريب تخلوا عن ماضيهم، ودعوا إلى التمسك بالإيمان الديني، ويمكن أن نعددهم من أتباع التيار التحديثي، وقد أضحى ذلك ظاهرة عامة في الفكر الديني العام، وسنختار نماذج ثلاثة، أولهم طه حسين حيث ألف في أواخر حياته رسالة بعنوان (مرآة الإسلام)، ولا ريب أن طه حسين شخصية مختلفة هنا عن السابق، فقد تجرع مرارة النتاج الغربي الذي كان من معجبيه، وخاصة ما خلفه الاستعمار في مصر والبلاد المسلمة على وجه العموم، حيث يقول: " والمستعمرون في هذا العصر الحديث يوشكون أن يفرضوا عليهم ضروبا من العلم، قد تخرجهم من الجهل، ولكنها ستقطع الأسباب حتما بينهم وبين تاريخهم، وتفنيهم في الأمم السابقة إفاء". ثم يقول وهو يوصي أبناء المسلمين: " وسيلهم اليقظة الخصبه واحده لا ثالث لها، وهي أن يذكروا ما نسوا من تراثهم القديم، لا ليقولوا إنهم لا يذكرونه، بل ليعرفوه حق معرفته، ويفقهوه حق الفقه، ويحسن

المتخصصون منهم العلم بدقائقه، وتيسيره لغير المتخصصين، هذه واحدة، والثانية أن يستدركوا ما فاتهم من العلم الحديث"⁷³.

ثانيهم الدكتور عبد الرحمن بدوي، مفكر عربي، ترك تراثا متنوعا ضخما، فهو بحق رجل موسوعي، وقد ترجم لنفسه كفيلسوف عربي في موسوعته الفلسفية، وقد كان تلميذا بارا ووفيا للمستشرقين، حيث ترجم مؤلفاتهم من الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والفارسية، كان بدوي وجوديا من أتباع الفلسفة الوجودية⁷⁴، من مؤلفاته (الزمان الوجودي، هل يمكن قيام أخلاق وجودية، والإنسانية والوجودية في الفكر العربي) وهو يريد تأسيس فلسفة عربية وجودية حرة من المعتقدات الموروثة، يقول بدوي: "فإن تطور الإنسانية يسير في اتجاه الوجودية حتى لنستطيع أن نقول أنها ستظل لأجيال وأجيال متطاولة أصدق تعبير عن هذه المرحلة الأخيرة من مراحل تطورها على مر الزمان اللانهائي"⁷⁵. إلا أن بدوي بعد هذا السفر الطويل، انقلب على مذهبه الوجودي، وعلى أساتذته المستشرقين، فألف كتابين قيمين باللغة الفرنسية، وهو يدافع عن القرآن الكريم والنبى محمد صلى الله عليه وسلم، فالأول (دفاع عن القرآن ضد منتقديه) والثاني (دفاع عن محمد ضد المنتقسين من قدره)، حيث دافع عنهما، ورد على المستشرقين.

ثالثهم جلال أمين، أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، مصري الجنسية، قضى ست سنوات في بريطانيا لإكمال الدراسات العليا، من دعاة الوضعية المنطقية⁷⁶ *Logical Positivism* حيث يقول: "كنت اتفق مع الوضعية المنطقية، بل

⁷³ طه حسين: مرآة الإسلام (د.م.ت. دار المعارف) ص 264-265.

⁷⁴ الوجودية *Existentialism* لسورين كيركيغورد *Soren Aaybe Kierkegard* (ت 1855م) من أقواله: "لا يمكن أن نصل إلى الإله بوسيلة طرائق الفكر". أ.م. بوشنسكي: الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ترجمة: عزت قرني (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1418هـ، 1992م) ص 265.

⁷⁵ عبد الرحمن بدوي: دراسات في الفلسفة الوجودية (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط2، 1966م) ص 14-15.

⁷⁶ الوضعية المنطقية أو الوضعية الجديدة *New Positivism* وليدة الوضعية الاجتماعية التقليدية في القرن العشرين، ترتد أصولها إلى أوجست كونت *Auguste Comte* (ت 1873م) وجون ستورانت مل *John Stuart Mill*

مؤيدا لها ومتحمسا لها"، ثم تحدث الرجل عن نفسه عندما كان مغررا بالفكر الغربي، مما جعله يرفض تراثه الديني: "لعل هذا الاكتشاف كان شبيها بالتغير الذي يلحق رجلا كان يعشق امرأة معينة عشقا، ويعتبرها أجمل المخلوقات طرا، ثم لسبب ما يموت الحب، فإذا بهذه المرأة في عينه لا تزال جميلة، ولكنها ليست الجمال نفسه، ويبدأ في ملاحظة أشياء فيها لم يكن يلاحظها، بل لم يكن يراها أصلا". ثم في النهاية أكد على ضرورة الإيمان بالميتافيزيقيا، حيث قال: "ومن المستحيل أن نتصور أمة تنهض إذا تخلت عن ميتافيزيقياها، وإن أسوأ ما يصيب أمة تخلوها عن ميتافيزيقياها، وتبنيها لميتافيزيقيا الغير"⁷⁷.

وفي عصرنا الحاضر يواجه التياران كلاهما تيارا آخر لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا رفضها، سواء كان من هذا التيار أو ذاك، وهذا التيار غير خاف، فذكر سماته يرشدنا إلى تسميته، فهو تيار يقوم على ما يأتي:

أولا) تصنيف العالم كله إلى جبهتين: جبهة الإسلام وجبهة أعداءه.

ثانيا) رفض الآخر بغض الطرف عن هويته ومذهبه وفكره.

ثالثا) الجهاد فرض عين على كل مسلم، وإنه ليس في الإسلام إلا جهاد واحد، وهو جهاد الطلب، أما جهاد الدفع فخرافة القاعدين، إلى غير ذلك من سمات هذا التيار، ولهذا نجد خطاب دينك التيارين أعني التيار التغريبي والتحديثي واحدا في مواجهة التيار الخطير، لأن انتصاره خطر كبير على وجودهما، ويمثل هذا التيار التكفيريون على اختلاف مذاهبهم، وهم الخوارج الجدد كما يسميهم بعض الباحثين.

(ت1873م). وهي تقوم أساسا على مبدأ التحقق من صدق الدعاوى *Verification* من خلال التعويل على التجربة.

⁷⁷ ويمكن الاطلاع على مقاله كاملا (عن العلم والميتافيزيقيا والنهضة) في مجلة العربي (الكويت، وزارة الإعلام، العدد494، 1420هـ، 2000م) ص108-113.

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة في عالم الفكر الديني اتضح لنا أن الفكر الديني بطبيعته قابل للتطور والتقدم، فهو فكر ديناميكي يتقلب حسب الوقائع والأحداث، فهو ليس جامداً، وهذا أمر طبيعي، وذلك لأن لكل عصر مشاكله، فلا بد لهذا الفكر أن يتعامل مع هذه المستجدات، ويجد لها تفسيراً وحلولاً وأجوبة، لأنها تحديات يفرزها الواقع المتقلب، فالفكر يحاول أن يفهم الدين في ضوء مجريات الأمور، ولا بد أن يجد ويصلح وينقد ويحلل ويصحح، ولو بقي جامداً فهو ليس فكراً سليماً، والفكر وقتئذ يلجأ إلى وسائل وأدوات في مسيرته، وهذه الأدوات عند استعمالها تؤسس منهجية فكرية معينة، لها نمط فكري محدد، وقد تبين ذلك كله من خلال تطرقنا إلى تأريخ تطور الفكر الديني، ابتداءً من زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث البساطة والوضوح في العقائد الدينية، وذلك لوجود الوحي الإلهي المعصوم، ثم تعقدت الأمور بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلما بعدت المسافة كلما تعقدت الأمور أكثر، وبلغ التعقيد أوجه بعد أن ظهرت المذاهب والفرق الدينية والسياسية، فقد تمسكت كل فرقة بمنهجيتها الفكرية معولة على بعض النصوص التي تراها مؤسسة لمنظومتها العقديّة، وذلك باللجوء إلى قانون التأويل، إن تلك الفرق والمذاهب أثرت على مسار الفكر الديني، ولا تفتأ آثار بعضها باقية إلى الآن كالمعتزلة، والبعض الآخر كالأشاعرة والماتريدية بقيت لها مدارسها على مر التاريخ، وقد بقيت المدرستان كلتاهما معروفتين بصورة رسمية في أكثر أصقاع العالم، إلى أن ظهر ابن تيمية الحراني الذي أسس هو الآخر مدرسة فكرية متميزة لها منهجيتها الواضحة، ولعل أشهر المدارس وأكثرها ثراء وتأثيراً في العالم الإسلامي هي المدرسة الأشعرية تليها مدرسة ابن تيمية الحراني، ولقد لاحظنا تأثيرهما في علماء الدولة العثمانية بصورة جلية.

د. عرفات كرم مصطفي